

شرح كتاب الفتن من صحيح البخاري الجزء الأول

كتاب الفتن من صحيح البخاري

قال الإمام البخاري - رحمه الله - :

7048 - حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا بشر بن السري، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، قال: قالت أسماء: عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناص من دوني، فأقول: أمّتي، فيقال: لا تدري، مشوا على الفهقري" قال ابن أبي مليكة: «اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن»

7049 - حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن مغيرة، عن أبي وائل، قال: قال عبد الله: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا فرطكم على الحوض، ليرفعن إلي رجال منكم، حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي، يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك"

7050 - حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، قال: سمعت سهل بن سعد، يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: «أنا فرطكم على الحوض، فمن ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدا، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم» قال أبو حازم: فسمعتي النعمان بن أبي عياش، - وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلا، فقلت: نعم، قال: وأنا - أشهد على أبي سعيد الخدري، لسمعته يزيد فيه قال: "إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه
فمن نعمة الله سبحانه وتعالى ومن رأفته ورحمته بنا وبأمة محمد ﷺ أن أوحى إلى نبيه ﷺ بتحذير هذه الأمة مما ستقع فيه من فتن وبلايا تمر هذه الفتن على قلوب العباد فتزلزلها وتؤثر فيها سلباً ، حتى إن بعضهم يصبح مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا .

فبين لنا ﷺ هذه الفتن وبين طريق الخلاص منها والحذر ، وبين لنا أيضاً أسباب وقوعها لنحذرنا .
فلم يترك النبي ﷺ شيئاً إلا وضح له هذه الأمة وبينه قبل موته عليه الصلاة والسلام ؛ حتى قال أبو ذر رضي الله عنه : لقد مات النبي ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وذكر لنا منه علماً .

وقال سلمان الفارسي : لقد علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة .

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : والله إني لأعلمُ الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة .
ثم ذكر أن النبي ﷺ لم يسر له بذلك سرّاً ؛ وإنما ذكره لأصحابه وعلمهم ، ولكن الناس حفظ منهم من حفظ ونسي منهم من نسي ومات منهم من مات ، فكان رضي الله عنه أعلم زمانه بالفتن التي أخبر النبي ﷺ عنها .

ولعظم خطر هذه الفتن ولشرها وكثرتها في هذا الزمان ؛ انتقينا شرح هذه المسألة من صحيح البخاري ، فمعلوم ما لصحيح البخاري من مكانة من ناحية الصحة ومعلوم ما في توبيبات الإمام البخاري - رحمه الله - من فقه وعلم في هذه المسائل وغيرها حتى قال أهل العلم : إن فقه الإمام البخاري في توبيباته .

فبدأ المؤلف رحمه الله بقوله (كتاب الفتن)
الفتن ؛ جمع فتنة ، وهي في اللغة : الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك : قَتَنْتَ الفضة والذهب ؛ إذا أدبتهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد .

وأما في الشرع ؛ فأطلقت على عدة معان ؛ منها :
المحنة وهي الاختبار ، والمال ، والأولاد ، والكفر والشرك ، والإحراق بالنار ، وغير ذلك من المعاني الكثيرة التي ذكرها أهل العلم والتي وردت في الكتاب والسنة .

والمقصود بها هنا هي المصائب والبلايا والعقوبات التي تنزل بالعباد .

ولا تتحدث هنا في الفتن الخاصة ؛ وهي فتنة الرجل في ماله وأهله وولده ؛ فهذه فتن خاصة تكفرها الصلاة والصيام والزكاة ، كما جاء في حديث حذيفة ؛ ولكن الحديث هنا عن الفتن العظيمة الكبيرة ، التي وصفت بأنها تموج كموج البحر من عظمها وكثرتها وكثرة تخبط من تناله ، فيكثر فيها الشر بأنواعه من منازعة ومخاصمة ومقاتلة وسفك للدماء .

قال المؤلف - رحمه الله - : (باب ما جاء في قول الله تعالى { واتقوا فتنة لا تُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة } وما كان النبي ﷺ يُحذِّر من الفتن)

هذا الباب معقود لبيان ما ورد في القرآن والسنة من التحذير من الفتنة ، ووجوب اجتناب أسبابها والوقوع فيها .
والحديث عن الفتنة العامة التي تعم ولا تخص بعض الأفراد ؛ كما ذكرنا ، وكما ذكر في الآية : { واتقوا فتنة لا تُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة } فهي فتن عامة .

وأما الآية التي سبقت هذه فهي قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون } { 24 } واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب } { 25 } [الأنفال : 25 - 26] .

(يا أيها الذين آمنوا) خطاب لجميع المؤمنين ؛ فهو لفظ عام شامل .

(استجيبوا لله وللرسول) أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله .
(إذا دعاكم لما يحييكم) أي إذا أمركم بالإيمان الذي يحيي القلوب ، وللإسلام والالتزام بأوامره وأوامر رسوله ، الذي دعانا إلى التوحيد والسنة والطاعة ، ونهانا عن الشرك والبدع والمعاصي ، وفي ذلك حياة القلوب وسلامة الأبدان ، فالإيمان نور للقلب من ظلمته ، وحياة له من موته .
وقد جرب كثير منا الحال قبل الإيمان وبعده ، أو قبل كماله ونقصانه ؛ فيجد الفرق في قلبه ، ويشعر بحياته .
(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) أي يمنع المرء من الإيمان والكفر إلا بإذنه .
فالله عز وجل هو الذي يأذن بذلك ؛ فلا يكون شيء في هذا الكون إلا بإذنه تبارك وتعالى .
ويحول ؛ بمعنى يحجز بين الشخص وبين قلبه ، فالإيمان والكفر من عمل القلوب ، ولذلك نكثر من دعاء الله ؛ يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك .
ونستجيب لله وللرسول بالطاعة ؛ فهذا من أسباب الثبات على الحق .
(وأنه إليه تحشرون) يوم القيامة ؛ فيجازيكم بأعمالكم ، فمن عمل خيراً جزي به ومن عمل شراً جزي به ؛ فيادروا لطاعته .
(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أي ؛ احذروا واجتنبوا فتنة عامة تصيبكم جميعاً ، لا تختص بالفسقة والمخالفين للشرع والظلمة لأنفسهم ولغيرهم والخارجين عن الطاعة فحسب ؛ بل تعمُّ الصالح والطالح .
كما جاء في حديث ابن عمر في « صحيح مسلم » قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بقوم عذاباً نزل العذاب .. فالعذاب يعمُّ والرحمة تخص كما قال أهل العلم بناء على ما استقرؤه من النصوص .
ولوقوع الفتنة العامة أسباب ، يمكن تلخيصها في سببين :
· الأول : انتشار الفساد وكثرته بين الناس .
· والثاني : ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
والثاني سبب لانتشار الأول ؛ فإذا ظهر الفساد بين الناس وظهرت المعاصي وظهر الفجور ، ثم ترك ذلك ولم ينكر ؛ عمَّ وطمَّ في البلاد .
ودليل الأول ؛ وهو انتشار الفساد ، على أنه سبب في وقوع الفتن ؛ الآية المذكورة نفسها ؛ فسبب وقوع الفتنة ظلم الناس بارتكابهم للبدع والمعاصي والذنوب .
وفي حديث زينب بنت جحش في « الصحيحين » : « أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده - فقالت زينب : يا رسول الله ! أهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ؛ إذا كثر الخبث » .
والخبث ؛ هو المعاصي والذنوب والبدع والمنكرات .
إذا كثر الخبث يهلك الله تبارك وتعالى الجميع الصالح والطالح إلا من رحم .
وقال ﷺ : « إذا ظهر السوء في الأرض ، أنزل الله بأهل الأرض بأسه » ، قالت عائشة : وفيهم أهل طاعة الله ؟ قال : « نعم ؛ ثم يصيرون إلى رحمة الله . » أخرجه أحمد في « مسنده » .
فهذا يدل على أن كثرة الفساد سبب لوقوع الفتنة ، فاجتنابها يكون باجتناب انتشار المعاصي والبدع .
وأما الدليل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لوقوع الفتن ؛ فقوله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لتأمرنَّ بالمعروف وتنهونَّ عن المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم . » أخرجه أحمد والترمذي .
ثم قال الله عز وجل في آخر الآية (واعلموا أن الله شديد العقاب) ، فإذا نزلت الفتنة ؛ فإنها تنزل شديدة - نسأل الله السلامة والعافية - وعمت الجميع .
والشاهد من ذكر الإمام البخاري للآية قوله تعالى { فاتقوا فتنة } يعني احذروا من وقوع فتنة عامة تصيب الصالح والطالح ، ففي هذا تحذير من الفتنة ويحذر المرء منها بمعرفة أسبابها واجتنابها .
وسيدكر المؤلف أسباب الفتنة ؛ وكلها ترجع إلى ما ذكرنا .
ثم بدأ المؤلف بذكر أحاديث فيها أسباب الفتن التي تؤدي إليها ؛ فقال :
حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا بشر بن السري ، حدثنا نافع بن عمر ، عن ابن أبي مليكة ، قال : قالت أسماء : عن النبي ﷺ ، قال : « أنا على حوضي أنتظر من يرد علي ، فيؤخذ بناس من دوني ، فأقول : أمتي ، فيقال : لا تدري ، مشوا على القهقري » قال ابن أبي مليكة : « اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا ، أو نفتن » .
(أسماء) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق أخت عائشة من أبيها رضي الله عنهم .
قال النبي ﷺ : (أنا على حوضي أنتظر) حوض النبي ﷺ مكانه في عرصات القيامة ، في الساحات الواسعة التي يحشر الناس فيها ، يشرب منه الناس في الموقف .
والحوض ؛ مكان منخفض تجتمع فيه المياه ، وهو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم .
وقد جاء وصف حوض النبي ﷺ في السنة ؛ فقال ﷺ : « حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه - وهي أوانيه التي يشرب بها - كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظلم أبداً » متفق عليه .
وأحاديثه متواترة والإيمان به من عقيدة أهل السنة والجماعة .
يأتيه المسلمون ومن معهم من المنافقين - الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر في الدنيا - للشرب منه والنبي ﷺ عنده .
قال ﷺ : (فيؤخذ بناس من دوني) أي يمنع بعض الناس من الشرب من الحوض .

قال : (فأقول أمّتي) أي إنهم من أمّتي ، وأمّته لا يمنعون من الشرب منه .
 فيقال له : (لا تدري ؛ مشوا على القهقري) أي إنك لا تدري ما أحدثوه من بعدك ، إنهم رجعوا إلى الخلف من بعدك ولم يسيروا
 على الطريق إلى الأمام ، فغيروا وبدّلوا وأحدثوا في دين الله ما ليس منه .
 والقهقري ؛ هو الرجوع إلى الخلف ، وهي كناية عن التغيير والتبديل في دين الله .
 فهؤلاء وقعوا في الفتنة بعد النبي ﷺ بسبب الإحداث والتغيير في الدين .
 (قال ابن أبي مليكة) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة ؛ تابعي ، قال : أدركت ثلاثين من الصحابة .
 (اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن) نعوذ من الرجوع على عقب ، أي إلى الخلف ، وهو كناية عن مخالفة الأمر
 والوقوع في البدع والمحدثات الذي تكون الفتنة بسببه ، واستعاذ من الوقوع في الفتن بشكل عام .
 وفي الرواية التي بعدها قال :

(أنا قرطكم على الحوض) أي أنا الذي يتقدمكم على الحوض ، فيكون أول من يحضره .
 وقال فيها (ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني) وفيها دليل على أن النبي ﷺ هو الذي يسقي أمّته من
 حوضه بيده .

وأن المذكورين الذين لا يُسَقون من أمة محمد ﷺ ؛ لأنه قال « رجال منكم » وهذا في الظاهر ، ولكنهم في الحقيقة قد عُيروا
 وبدّلوا .

فهل هذا التغيير تغيير في الأصول تغيير كلي حتى إنهم كفروا به ، أما تغيير جزئي في البدع والمعاصي ؟
 فيهم قولان :

1- قول بأنهم المنافقون ؛ وهؤلاء كفار وإن كانوا في الظاهر من أمة محمد ﷺ .
 2- وقول بأنهم مؤمنون إلا أنهم أحدثوا في دين الله ما ليس منه فاستحقوا الطرد والإبعاد .
 ولا يبعد أن يكون الجميع مراداً بهذا الحديث .
 ومعنى « أهويت » أي مددت يدي لأناولهم .
 و « اختلجوا دوني » أي اجتذبوا واقتطعوا فلم أصل إليهم .
 وقال (لا تدري ما أحدثوا بعدك) هذه تفسر الرواية التي قبلها ، فالروايات تفسر بعضها بعضاً ، والإحداث ؛ التغيير في دين الله
 إما بالمعاصي أو بالبدع أو بالنفاق اللفظي يحتمل هذا كله .
 وفي الرواية التي بعدها قال (كَيَّرَدَنَّ عَلَيَّ الحَوْصَ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني) فيعرف النبي ﷺ أمّته بآثار الوضوء كما جاء في
 حديث آخر ، وهم يعرفونه بصفاته .
 وقال (إنهم مني ؛ فيقال : إنك لا تدري ما بدّلوا بعدك ، فأقول : سحفاً سحفاً لمن بدّل بعدي) أي بُعداً بعداً ، فيدعو عليه بالبعد ؛
 لأحداثه في الدين .
 والشاهد من هذه الآثار :

أنها تتضمن ؛ الوعيد على التبديل والإحداث ؛ فإن الفتن غالباً تنشأ عن ذلك عن التغيير بالمعاصي والبدع وغيرها من أنواع الخروج
 عن طاعة الله ، فهي سبب من أسباب الفتن ؛ فيجب اتقاءها والحذر منها .
 قال المؤلف - رحمه الله - : (باب قول النبي ﷺ) : « سترون بعدي أموراً تنكرونها » .
 وقال عبد الله بن زيد : « قال النبي ﷺ : اصبروا حتى تلقوني على الحوض » .
 هذا الباب معقود لبيان سبب ثاب من أسباب الفتن ، وهو داخل في عموم السبب الأول ولكنه خص بالذكر لعظمته ؛ وهو الخروج
 على أئمة الجور والظلم والطغيان ، فالخروج على هؤلاء سبب عظيم من أسباب الفتن .
 لذلك بوب الإمام البخاري رحمه الله باب « سترون بعدي أموراً تنكرونها » فوقوع المنكرات منهم أمر حاصل ولا بد ، وقال في
 حديث عبد الله : اصبروا حتى تلقوني على الحوض ، فذكر طريقة العلاج .
 وعدم طاعة النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك معصية وهي سبب وقوع الفتن أيضاً ، وأول فتنة وقعت في الإسلام كانت في
 الخروج على الحاكم وهي فتنة قتل عثمان رضي الله عنه ، فوقع السيف في أمّتي محمد صلى الله عليه وسلم فلا يرفع إلى قيام
 الساعة .

وبقي الخروج على الحكام مستمرا ، وضرب كثير من المسلمين بهذه الأحاديث عرض الحائط ولم يأخذوا بها ، وخرجوا على
 الحكام فوقعت الفتن وسفكت الدماء وانتهكت الأعراض وسلبت الأموال والله المستعان .

وذكر المؤلف في تبويبه قطعيتين من حديث سيأتي شرحه ضمن أحاديث الباب .
 قال المؤلف :

حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا الأعمش ، حدثنا زيد بن وهب ، سمعت عبد الله ، قال : قال لنا رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : « إنكم سترون بعدي أثره وأمورا تنكرونها » قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « أدوا إليهم حقهم ، وسلوا الله
 حَقَّكُمْ » .

(إنكم سترون بعدي أثره) الأثره ؛ الاستثثار ، والمعنى أنكم ستجدون من بعدي أمراء يقدّمون أنفسهم في الأموال والحقوق ،
 ولا يعطونكم حقوقكم من ذلك .

قال (وأموراً تنكرونها) أي أنكم ستجدون منهم منكرات ؛ فيدخل في ذلك المعاصي والبدع وأنواع المخالفات الشرعية .
 فلا يذهبن أحد إلى أحاديث عامة كقوله صلى الله عليه وسلم : " من رأى منكم منكراً فليغيره ... " ويقول أريد أن أخرج على
 الحاكم لأغير المنكر ، ويترك الأحاديث الخاصة التي وردت في ذلك ، كما يحصل اليوم من الفرق والجماعات الموجودة ، هذا من

اتباع الهوى ؛ فالأخذ بالأحاديث الخاصة مقدم على الأحاديث العامة في لغة العرب وعند جميع أهل العلم .

(قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله) سأله الصحابة عن كيفية التعامل مع هؤلاء الأمراء .

فقال (أدوا إليهم حقهم ، وسلوا الله حقكم) هذه طريقة العلاج ، أدوا إليهم حقهم الذي جعله الله حقاً لهم ، وهو السمع والطاعة في غير معصية الله .

وفي هذا ردٌ على الخوارج الذين يقولون بأن الحاكم الظالم الذي لا يحكم بشرع الله لا سماع ولا طاعة له مطلقاً ؛ مخالفين بذلك صريح قول النبي ﷺ ؛ فإن هذا الحاكم الذي استأثر بالخير لنفسه ومن معه لم يحكم بما شرع الله فيه .

(وسلوا الله حقكم) نصيبتكم وما هو لكم ؛ فلن يضيع عليكم ، فسلوا الله ذلك تحصلون عليه إما في الدنيا أو في الآخرة . فطريقة العلاج الصبر والدعاء .

ففيه عدم جواز الخروج عليهم بالسيف ؛ إذ لم يرشد النبي ﷺ إلى ذلك مع سؤالهم ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز . وفيه ردٌ على الذين يجيزون الخروج لإنكار المنكر ؛ فهؤلاء وقع منهم المنكر ، ومع ذلك لم يأمر النبي ﷺ بالخروج عليهم لتغيير المنكر .

وقال في الرواية الثانية (من كره من أميره شيء فليصبر) وشيئا نكرة في سياق الشرط تعم كل شيء ، ولقائل أن يقول : تعم حتى الكفر البواح ؟

فنقول : هذا غير داخل أصلاً لأن الحديث في الأمير المسلم ؛ لقوله « من أميره » ، وأميره لا يكون إلا مسلماً ، والكافر لا يكون أميراً على المسلم بالإجماع .

الإجماع يخص الأمير المسلم من عموم قوله « من أميره » ، وبقوله تعالى : { ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً } [النساء : 141] .

وأما قوله (فليصبر) فأمرٌ ، والأمر يدلُّ على الوجوب ، والخروج على الحاكم ينافي الصبر .

ففي الحديث تحريم الخروج على الحاكم المسلم ؛ لأن الخروج عليه يؤدي إلى مفاصد أعظم من المفاصد التي وقع فيها بكثير ، وقد نقل غير واحد الإجماع على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه ، وأن طاعته خير من الخروج عليه ؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء .

وقال فيه « : فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية » .

ومعنى « فإنه من خرج من السلطان » ؛ أي خرج من طاعة السلطان .

« شبراً » ؛ أي ولو قدرًا قليلاً ، والمراد عصيانه ومحاربه .

« مات ميتة جاهلية » ؛ أي حالة موته كموت أهل الجاهلية ، فإنهم لم يكونوا يعرفون أميراً ولا طاعة له عندهم ؛ فيموت ضالاً كضلالهم .

وأما الرواية الثالثة ؛ ففيها بيعة عبادة بن الصامت ومن معه النبي ﷺ ، وفيها أنهم بايعوه (على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا) .

ومعنى (منشطنا) ؛ أي في حال نشاطنا .

ويحصل النشاط للسمع والطاعة عندما نحب العمل ونرغب فيه أي الذي أمرنا به .

و (مكرهنا) ؛ أي وفي حال كراهتنا للسمع والطاعة له ، فنسمع ونطيع .

(عسرنا ويسرنا) ؛ أي وفي حال الشدة والمشقة علينا ، وفي حال اليسر والسهولة .

قال (وأثرة علينا) ؛ أي في حال رأينا أمراءنا يخصون أنفسهم بالخيرات ويمنعوننا حقوقنا منها .

ففي جميع هذه الحالات نسمع ونطيع .

وهذا مخصوص بقوله ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وقوله « : إنما الطاعة في المعروف » .

وهذا الحديث له قصة ، وهي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشاً ، وأمر عليهم رجلاً ، فأوقد ناراً ، وقال : ادخلوها ،

فأراد ناس أن يدخلوها ، وقال الآخرون : إنا قد فررنا منها ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها : « لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة » ، وقال للآخرين قولاً حسناً ، وقال : « لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة

في المعروف » ، أي فيما هو جائز شرعاً لا فيما حرم الله .

قال (وأن لا تنازع الأمر أهله) ؛ أي لا تحارب الملوك والأمراء لنحصل على الملك والإمارة منهم .

وغالب الذين يخرجون على الحكام يطلبون الدنيا ؛ إما الإمارة أو المال ، ومنهم الخوارج .

لذلك سئل الحسن البصري فيما يذكر عنه :

ما تقول في الخوارج ؟ قال : هم أصحاب دنيا - هؤلاء الخوارج الذين وصفه الله بما وصفهم به من صلاة وعبادة - قال : ومن أين قلت ذلك وأحدهم يخرج في الرمح حتى ينكسر فيه ويخرج من أهله وولده ؟ أي يضحي بنفسه ولا يبالي ويندفع للقتال ،

قال الحسن : حدثني عن السلطان ؛ أيمنك من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج والعمرة ؟ قال : لا ، قال : فأراه إنما منعك الدنيا فقاتلته عليها .

لذلك أول من خرج منهم خرج للدنيا ، اعترض على النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة المال ، أعطى النبي صلى الله عليه وسلم بعض المؤلفة أكثر من غيرهم ، وهذا الرجل إما أنه أخذ أقل من غيره أو لم يأخذ فلم يعجبه فاعترض على النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا ما رأيناه اليوم هاهم يتنازعون على السلطة في سوريا .

قال في الحديث : (إلا أن تروا كفرةً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) .

فلا يجوز الخروج على الحاكم إلا عند رؤية كفر بواح ، أي أن نرى كفراً واضحاً ظاهراً بيّناً لا خفاء فيه ولا إشكال ، مذاع معلن .
ثم بعد أن نرى هذا الكفر ؛ لا يجوز الخروج إلا عند وجود القدرة ؛ لقوله تعالى : { فاتقوا الله ما استطعتم } ، قوله : { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها } وعند تقدير المصلحة والمفسدة ، كما تدل على ذلك قواعد الشريعة ، ومن ذلك القاعدة العظيمة التي تقول إن الشريعة جاءت لتحقيق المصالح وتكميلها ، ودرء المفاصد وتقليلها
فالخروج مع عدم وجود القدرة يؤدي إلى مفاصد عظيمة لا تحقق الإصلاح المطلوب ، بل تؤدي إلى مفاصد عظيمة .
والأحاديث التي ذكرها الإمام البخاري تدل على أن المفسدة المتوقعة إذا كانت أعظم من المصلحة حرم الخروج ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع من الخروج على الحاكم الظالم الفاسق مع إفساده في الأرض إلا لأن المفسدة تغلب المصلحة عند الخروج عليهم فوجب تسكين الدهماء ، وحقن الدماء .
ومن هنا أخذ شيخ الإسلام القاعدة التي تقول إن أي قتال مفسدته أعظم من مصلحته فهو قتال فتنة .
فلا بد من تقدير المصلحة والمفسدة ومعرفة القدرة وإعطائها قدرها ، وأنتم رأيتم ما حصل في سوريا ، وقبل ذلك ما كان عليه الحال في ليبيا ، لولا الله أولاً ثم الثروات التي في ليبيا وأطماع الغرب فيها لما حصل ما حصل ولما وصلت إلى هي عليه الآن ، مع أنها قدمت من التنازلات ما الله به عليم ، حتى تمكنوا من إسقاط الطاغية الذي كان فيها .
وكذلك الحال اليوم في سوريا لا يختلف اثنان ممن يعرف من هم النصيرية ومن هم البعثية في كفر حاكمها ، لكن بداية الأمر قلنا لا يجوز الخروج ؛ لأن المفسدة التي ستقع أعظم وأكبر مما هو حاصل ، فلا توجد قدرة ، ولكن لم يسمع كثير من الدهماء ما قلنا ، وخرجوا وحصل ما حصل ، الآن من الذي سيخلصها مما هي فيه ، لا يخلصها إلا الله تبارك وتعالى من الوحل الذي علقته فيه ، هذه نتائج عدم السماع لكلام العلماء الربانيين ، ونتائج عدم الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وإلا فلو تفقهنها في دين الله ، وتعلمنا أسباب الفتن ، وكيف النجاة منها ، والاحتراز من الوقوع في أسبابها ؛ لما وقع ما وقع ولا حصل ما حصل . والله المستعان .